أعتزال الجاحظ

تمهيد في أثر التدين في الفلسفة :

ليست هذه الحضارة الفخمة وليدة القرن العشرين كما يحب أن يدعوها الناس ، فما هي من نتاجه وحده ، بل لو انقطع الاتصال الفكري ، وحاول هذا العصر أن يعمل أو يبدع شيئاً ، لما اتسع له زمنه أن يصطنع لبنة واحدة في هذا البناء الشامخ الذي جهد فيه الانسان المفكر منذ نحو خمسة وعشرين قرناً . فما العلم والفلسفة وما الاكتشاف والاختراع الا الحلقة الأخيرة من سلسلة كانت أولى حلقاتها على وجه التقريب تعاليم طاليس أب الفلسفة وأحد الحكماء السبعة . وليس من موضوعي أن أتحدث عن هـذا التسلسل بل أن أتعرف أي الأسباب أقوى أثراً في هذا التاريخ الفكري وأيها أمضى نفوذاً في قيادة مراحله .

وهنا نرى أن ظاهرة سايرت الانسان منذ انتهى من كفاحه القوي الكونية ، للبقاء ، هذه الظاهرة التي رسخت في الانسان حتى كأنها صهرت في طبعـه ، هي التي ملكت عليه أمره وقادته الى حيث تشاء .

ولئن جاز أن تذوب هذه الظاهرة من نفس الانسان على تراخي الأزمان من غير أن تنتقل أو تتحول ، ما يكون ذلك إلا بمقدار ما يمكن أن يذوب من أوار الشمس وما يمكن أن يخفت من نورها . هـذه هي ظاهرة التدين التي سيطرت من الانسان على كل شيء ، وكان لها من النفوذ ما سخر لها العقـل ، وأخضع لها الشعور ، وألان لها العزم والعادة ، وهي في بعض أدوارها إن عبثت بالعقل ، وسخرت من منتجات الفكر ، فلكم شادت من حضارات ، وبعثت من عقول ، وأنارت من سبل في بعضها الآخر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والانسان منذ أتيح له أن يستقر ، وكانت له بسبب الاستقرار نزعات نفسية وعقلية ، لم يكن من هذه النزعات أعز عليه من تدينه ، فهو ان حارب المدنية والعلم فذلك صيانة له من أن يتسرب اليه ما يضعفه أو يقضي عليه . وان استخدم الفلسفة واستعمل العقل وساهم في العلم فذلك في الأصل تفسير لمبهاته أو تعزيز لدعواه أو دفاع عن حوزته .

ومن هنا يرى الباحث ان اليونان وفلسفتها ، والاسكندرية وأفلوطينيتها ، والاسلام ونهضته الكبرى ، وأوربا وحضارتها الحديثة ، كل أولئك كانوا مدينين بأكبر قسط الى التدين في عنصر البحث أو فيما حفزهم اليه : فلقد كان للشرق في الماضي السحيق قبل أن يكون هناك يونان في العهد الذي نسميه : ما قبل العلم والفلسفة ، كان له قصص ديني ولد له أفكاراً في العالم والحياة : منها الوجود والتغير والخير والشر والأصل والمصير ، وفضلاً عن ذلك كان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود .

وما كانت الفلسفة فيما بعد لتخرج عن هذه النظريات الكبرى . بل قد نستطيع أن نجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها ، أو أصلاً قد تكون نبتت منه كما يقول بذلك بعض مؤرخي الفلسفة . فلئن لم يلقن الشرق اليونان مذهباً أو منهجاً على طريق مباشرة . لقد دفعهم الى التفكير بما جمع لهم من مواد قروناً طويلة عالجوها فيما بعد على نحو فلسفي أو علمي . وأما الأفلاطونية الجديدة والأفلوطينية في مدرسة الاسكندرية فهي التي ظهر بجلاء أثر التدين فيها ، مما جعل لهذه الأفلاطونية طابعاً ظهر فيه التمازج بين فلسفة الغرب ودين الشرق ، ومما يذكر عن فيلويهوذا الاسكندراني أشهر فلاسفة الأفلاطونية الجديدة الأولين ، أنه ذهب في وفد الى روما يشكو معاملة الحاكم الروماني على مصر لأهل ملته ، ولم يكن يعرف العبرانية ، فقرأ التوراة باليونانية وشرحها ، وكان يقصد بذلك أن يبين لليونان ان في التوراة فلسفة أقدم وأسمى من فلسفتهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما الحضارة الأوربية الحديثة ، فما أتحدث عن أحد أصولها فلسفة القرون الوسطى ، اذ ما يشك مطلع ان هذا العصر كله الذي جمع عصري آباء الكنيسة ، والعصر المدرسي ، قد سيق بعامل التدين وحده ، حتى كان الشعار في ذلك ، هذا الزمن المديد (لا بد لكي تعقل أن تعتقد) . وانما أريد أن أتحدث عن أقرب من ذلك ، عن هذه النهضة الفكرية القريبة التي طرحت عن كاهلها وقراً من التقاليد الدينية والفلسفية والعلمية ، واتجهت نحو التجربة والملاحظة فيما تبحث . أريد أن أتحدث هل استطاعت مع ذلك أن تتحرر من أثر التدين أم انصاعت له وسارت في ركابه في شيء من الحرية تبحث وتستنتج ؟ نأتي على ذلك مثالاً بعلمين كبيرين ، هما أعظم أركان النهضة الحديثة : بيكون وديكارت .

أما بيكون الذي نشأته أمه العليمة بأصول الدين ، فقد أعلن عن ايمانه في مقال يرد به تهمة الإلحاد التي وصمه بها معاصروه يقول فيه : « ان القليل من الفلسفة يميل بعقل الانسان الى الإلحاد ، ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول الى الايمان . وذلك لأن عقل الانسان قد يقف عند ما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة فلا يتابع السير الى ما وراءها . ولكنه اذا أمعن النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بداً من التسليم بالله » وقد كتب قبل موته : « انني أضع روحي بين يدي الله » .

وأما ديكارت ، فلئن استطاع أن يجتث بشكه كل شيء أدته اليه حواسه الخادعة ، وكل شيء عرف وجوده بالعقل ، فما أسلم انه استطاع أن يشك بالاله إلا شكاً ظاهراً ، بدليل أنه أسرع الى اثبات الكائن اللانهائي ، قبل أن يثبت شيئاً مما هدمه في شكه من هذه الكائنات النهائية ـ الا وجوده ، بأدلة لا تكافئ شكه الحاد الجارف ، مما يدل على تمكن عقيدة الإلهية في نفسه تمكناً لا تخيفه هذه الشكوك مهما تكن عنيفة . على انه قال في قواعده الأخلاقية الثلاث ، الأولى : « ان أطيع قوانين بلادي وعوائدها مع ثبات في محافظتي على الديانة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التي أنعم الله عليّ بأن نشأت فيها » ومما يشهد لذلك نذره أن يحج الى كنيسة العذراء في لورت بايتاليا ، شكراً لله على أن هداه الى أصول فلسفة وقد أوفى بنذره .

وأما الحضارة الاسلامية فمن فضول القول أن نسعى الى اثبات أثر التدين البارز فيها ، لأنه ان كان بعض الأديان سبباً قوياً في ظهور الحضارات ، فالاسلام هو كل الشيء في العمل على تكوينها بالفعل والقوة والنص . والحركة الاعتزالية التي سأوجز القول فيها ومضة من ومضات العقل فيه .

أما بعد فهذا عرض سريع نستشف من خلاله التدين عنصراً أصيلاً في الانفعالات الفكرية ، على ضوئه نفسر أسراراً من قيام حضارات قد لا تقوم إلا به ، وسقوط حضارات قد لا تسقط الا به ، وعلى هذا كانت النزعة الدينية الاعتزالية من اعظم مكونات النهضة الاسلامية الفلسفية والعلمية . وبأعلامها وزعمائها تضافرت النزعتان الدينية والفلسفية . وسنعرض بايجاز الفكرة الاعتزالية لنبحث في بعض زعمائها الجاحظ المعتزلي .

نشأة الاعتزال وانتشاره في الآفاق :

تقاس قوة الأشياء في الصدر الأول من الاسلام بمقدار ما فيها من النفوذ الديني ؛ فما الأحداث الكبرى سياسية أو اجتماعية يمكن أن تكون شيئاً مذكوراً ما لم تتخذ من الدين درعاً يحميها وتتقوى به ، الى أن تضؤل نزعة سياسية أو اجتماعية لتتحول الى نزعة دينية لها عقائد وأدلة . ثم تتوارثها أجيال وتتخذها نحلة ودينا ، وهي ليست من ذلك المنزع الأصلي في شيء ، وهذا في صدر الاسلام طبيعي لامة كانت تعنو لدين غزاها في أعمق مشاعرها ، واستولى على كل ذرة من ذرات وجودها . واذا كان من مسؤول عن الاختلافات المذهبية فهي السياسة التي دخلت على أمة لم تمرس بحلاوتها ومرارتها . فالشيعة والخوارج فرقتان يدل اسماهما على معان سياسية خالصة . فالشيعة هم الذين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شايعوا عليًا وتولوه ، وقد خذلوا غيره ، والخوارج هم الذين خرجوا على معاوية وعلي وقاتلوهما ولم يتولوهما . وللدين في ذلك مدخل واضح ، فالخلافة اسلامية ، والمسلمون هم الذين يختارون خليفتهم . فاذا بايعوا أبا بكر ثم عمر لأفضليتهما في الاسلام وقدرتهما على القيام بأعباء الخلافة ، فما كانوا ليبايعوا من بعدهما بتلك الثقة والسرعة والاستسلام اللاتي فازا بها ؛ فهناك رهط من الأصحاب ، يتقاربون في مؤهلاتهم لهذا المقام الخطير ، ويتقاربون في ثقة المسلمين بهم ، ويتقاربون في طموحهم الى الخلافة ، وهم أصحاب الشورى الذين اصطفاهم عمر ليختاروا هم خليفة المسلمين . ولقد فاز بها عثمان الذي ربما كان الرأي العام ينتظر أن يكون لها غيره ، لكن أو ليس قد أقره أصحاب الشورى وفيهم علي ، اذن فما على الناس الا أن يسلموا ويبايعوا ، الا بعض أقوام كظموا على جرتهم ، وبدأو يترقبون أخطاء أغراهم بتقصيها لينه وسجاحة خلقه ، حتى جمعوا منها ما يكفي برأيهم أن تكون الكارثة الكبرى التي أشاطت بدمه . واذا كانت هذه الكارثة أكبر جريمة سياسية في الاسلام فهي أكبر مفتاح لاختلافات حزبية أدت الى اختلافات مذهبية . والظاهر أن الأخطاء التي بحث الخوارج فيها ، وأكفروا مرتكب الكبيرة منها ، هي في الأصل أخطاء الخلفاء . ولعل منها ما نسبوه لعلي من الخطأ في التحكيم فأكفروه به وخرجوا عليه .

وبينما كانت المجالدة بالسيف شديدة بين الخوارج والدولة في ميادين القتال ، كانت المجادلة باللسان على أشدها في مسجد البصرة ، ذلك ان الخوارج كانوا يرون أن مرتكب الكبيرة كافر لا ذمة له يستباح دمه وماله مما جعلهم حربًا على علي ومعاوية والأمويين ، وكان في مقابلهم رأي معاكس يحمله المرجئة الذين يرون ألاّ يحملوا أحداً خطأ بعينه ، فهو يرجئون أمر المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيامة ، لا يغمسون أيديهم في الفتن ، كما لا يلغون في اللعن والبراءة ، ومرتكب الكبيرة مؤمن ، وشعارهم في ذلك لا تضر مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . حتى اذا اشتد النزاع واتسعت دائرة الخلاف احتكموا الى شيخ التابعين الحسن البصري وسألوه رأيه في مرتكب الكبيرة ، فلم يجنح الى قول احد الفئتين بل أظهر رأياً ثالثاً وهو أن مرتكب الكبيرة فاسق ، فمن بين هذه الآراء الثلاثة ظهر الرأي الرابع وهو ان لمرتكب الكبيرة منزلة بين المنزلتين أي منزلة بين الكفر والايمان وهو ملحق بالكفار بحسب الحكم الأخروي ، وهذا رأي واصل بن عطاء وزميله عمرو بن عبيد اللذين غادرا حلقة الحسن البصري ، واعتزلا قوله وقول الخوارج والمرجئة الى مبادئ صنفوها واعتقدوها ، فسموا : المعتزلة . واسم المعتزلة لم يتقبله المعتزلة أنفسهم على انه يرمز الى فكرة الانشقاق عن أهل السنة والجماعة ـ والا تنازعوا في هذه التسمية بدءاً ـ وانما تقبلوه لأنه يرمز الى فكرة الحياد التي لا ينصرون بها أحد الفريقين على الآخر من أهل السنة والخوارج . ولفظ اعتزل لغة تدل على معنى تجنب وعاش في عزلة . وفي القرآن الكريم : «وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون» ـ أي كما في التفسير ـ خلوا سبيلي ولا تكونوا علي ولا معي . على انه كان قبل هؤلاء المعتزلة ، معتزلة سياسيون مذهبهم الحياد أيضاً ، لا يبايعون أحداً ، ولا يقاتلون مع أحد . ففي تاريخ الطبري «كتب قيس بن سعد الى علي يقول : ان قبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم ، وان أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس» وفي الطبري أيضاً «حين اجتمع المحكمون سنة ٣٧ ه للفصل بين علي ومعاوية قال المغيرة بن شعبة أحد المعتزلة لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله أخبرني عما أسألك عنه ، كيف ترانا معشر المعتزلة فانا شككنا في الأمر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة ، قال أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار» وسواء أكان المعتزلون المتكلمون استمراراً في ميدان النظر والفكر للمعتزلين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السياسيين كما يقول بذلك بعض الباحثين ، أم لم يكونوا كذلك ، فان اسم الاعتزال وفكرة الحياد قد أقتفى بها المتأخرون المتكلمون إثر المتقدمين السياسيين حتى بالحياد السياسي ، وان تعرضوا لشيء من السياسة فانما يتعرضون منها لما سبق عصرهم . هذه لمحة عن أصل الاعتزال .

وأما الدعوة الى مذهب الاعتزال فقد اتسع نطاقها في زمن يزيد بن الوليد الخليفة الأموي الذي تمذهب بمذهبهم ، فنشطوا لذلك وقاموا معه يناهضون الوليد الذي أسرف في اللهو والشراب . يقول المسعودي : « وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق على الوليد بن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره » . والذي نهض بالدعوة في أوائل العصر العباسي بنظام وحزم ، الخطيب الألمعي الزعيم الأول واصل بن عطاء ، فقد أنفذ أصحابه الى الآفاق ، وبث دعاته . قال ابو الهذيل : « بعث عبد الله بن الحارث الى الغرب فأجابه خلق كثير ، وبعث الى خراسان حفص بن سالم ، وبعث القاسم الى اليمن ، وبعث أيوب الى الجزيرة ، وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة ، وعثمان الطويل الى ارمينية » . وقد وصف شاعر المعتزلة صفوان الأنصاري أعمال واصل ودعاته وما بلغت من الآفاق بقوله :

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ... الى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر
اذا قال مروا في الشتاء تطاوعوا ... وان كان صيفاً لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكد المسافر
فأنجح مسعاهم وأثقب زندهم ... وأورى بفلج للمخاصم قاهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مبادئ المعتزلة :

لا تستقر الحيوية الفائرة من أمة في حال ، الا لتجد لها منفذاً في حال أخرى . تعمل وتبدع في هذه كما عملت وأبدعت في تلك ، فاذا المسلمون أدوا واجب الفتح لنشر دعوتهم بتلك القدرة الرهيبة فان هذه القدرة لم تقف ولم تضعف ، بل مضت في ميدان آخر هو الميدان العقلي ، الذي ألجأهم اليه نوع من الاستقرار ، وذلك الهجوم المعاكس الذي شنه عليهم خليط من أمم مختلفة الأديان والنحل والأهواء : فهناك كثير من اليهود والنصارى الذين تسلحوا بالفلسفة اليونانيـة ، وهناك كثير من الفرق الثنوية كالزرادشتية والمزدكية والمانوية والديصانية ، وهناك الدهريون الفلاسفة الذين شهروا بالقوة والنشاط في الدعوة ، فلقد كان من هذا الخليط حين أعياه أن يثبت لهذا الأتي الطامي أن عمد الى لون آخر من ألوان الصراع ؛ أن يردع العقيدة بالشك ، ويناهض النص بالعقل ، ويدفع السماع بالقياس . وما نستطيع أن نحكم على هذا الخليط بالاخفاق التام ، فهو ان خسر أن يضم المسلمين الى صفوفه خسراناً مبيناً في هذه المعركة العقلية ، فلعمري لقد نجح في أن يدخل عليهم في دينهم ما كان ينبغي ألا يكون .

ولا جرم أن المعتزلة مع ذلك هم أبطال الدفاع في هذا الميدان ، وقد انتصروا في رد غاراتهم وما بذروه من شكوك انتصاراً ليس هو أقل من الانتصار في الفتح . ولكن طبيعة المحاجة والدفاع تستدعي من المرونة والحرية العقلية والاحاطة بأقوال الخصوم والتسلح بسلاحهم ما به تكونت أكثر آراء المعتزلة . وما يتسع المجال لبسط جميع آرائهم ولكن سأوجز القول فيما أجمعوا عليه . يقول ابو الحسن الخياط : « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة ، التوحيد ، والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاذا كملت في الانسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي »
وفي مروج الذهب « كان يزيد الناقص يذهب الى قول المعتزلة ، وما يذهبون اليه في الأصول الخمسة : من التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والاسماء والاحكام وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .
ولنفسر الآن ما يقصدون اليه من هذه الأصول الخمسة . أما التوحيد فمعناه أن الله واحد لا شريك له من أي جهة كان عالم قادر حي سميع بصير بذاته ، والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله لا كثرة في ذاته ، وهو ليس كمثله شيء ، ولا يرى بالأبصار في الدنيا ولا في الآخرة . وهذا المبدأ كان النتيجة السلبية لذلك التجاذب القوي بين المعتزلة من جهة ، والمجسمة من غلاة الشيعة والرافضة ومن يقول بالجهة من المحدثين ، من جهة أخرى . وأما العدل ، فهو والتوحيد من أصولهم اللاتي اشتهروا بها ، إذ كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، ويريدون بهذا المبدأ ان الله تعالى (لا يحب الشر والفساد ، وهو بريء من كل ذلك ، ولا يخلق ولا يفعل الا ما فيه مصلحة للعباد ، وأفعال العباد منسوبة اليهم يفعلونها بقدرة خلقها الله فيهم ، ولهم استطاعة قبل الفعل) وهذا الأصل كان موضوعاً للرد على الجهمية الذين قالوا بالجبر . وغالوا فيه مغالاة اضطرت واصلاً أن يرسل بعض أصحابه لخراسان يناظر جهماً وينازله .

وهذه المشكلة مشكلة الجبر والاختيار لم تكن مما اختلف فيه المسلمون وحدهم ، بل لقد أعيت من قبل فلاسفة اليونان فكان الابيقوريون يقولون بأن الارادة حرة ، والرواقيون يرون انها مجبورة لا يمكنها أن تختار .

وأما الوعد والوعيد ، فيريدون به ان الله تعالى صادق في وعده ووعيده ، لا مبدل لكلماته فلا يغفر عن كبيرة الا بعد التوبة . وقد غلا بعضهم في التعبير عما يريد حتى قال : يجب على الله ان يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة ، فصاحب الكبيرة اذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين فمعناه أن صاحب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ولكنه فاسق وللفاسق الخلود في النار على فسقه . وقد علمنا أصل هذا المبدأ في سياق الحديث عن منشأ الاعتزال .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا أمر اشترك فيه عامة المسلمين ولكن اختلفوا في مدى انفاذه ، فمنهم من رأى أنه يجزئ فيه القلب واللسان وهم : سعد بن ابي وقاص ، وأسامة بن زيد ، وابن عمر ، ومحمد بن مسلمة . ومنهم من يرى انه إن لم تجد بانفاذه الا الشدة وجبت ولو في سل السيوف ، ومنهم : علي ، وعائشة ، ومعاوية ومن قاتل معهم ، وهذا الرأي هو الذي جرى عليه المعتزلة والخوارج ، فقد كان للمعتزلة مواقف عنيفة في مخالفيهم يطعنون ويوعدون فواصل بن عطاء يخطب في بشار فيقول » أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا ان الغيلة من سجايا الغالية لدسست اليه من يبعج بطنه في جوف منزله أو في حفله » . وهذا عمرو بن عبيد يقول لعبد الكريم بن أبي العوجاء : « قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستزله وتدخله في دينك فان خرجت من مصرنا - يعني البصرة - والا قمت فيك مقاماً آتي فيه على نفسك » ولعل أكبر ظاهرة للمعتزلة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالاكراه والشدة هي فتنة خلق القرآن التي لم تكن في تاريخ المعتزلة سمة شرف ، بل كانت وصمة عار . هذا ولكم كنا نود أن نبسط القول بعض الشيء في الاعتزال وآثاره في الحركة العلمية والفلسفية والأدبية لولا ان الغاية البحث في اعتزال الجاحظ .

الجاحظ وآراؤه المعتزلية العامة والخاصة :

يخلد الجاحظ الأديب العالمي ، ويُطوى الجاحظ الزعيم المعتزلي ، فيمتد ذاك حتى يبلغ أن يجاوز المكان والزمان ، ويقلص هذا حتى يبلغ أن يدفن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في أرضه ، أفما كان من حق الجاحظ على الزمن أن يدع له أعلق الأثرين في نفسه ، وأثرهما عنده ، وأقواهما في تربية ملكاته العقلية ، فيبقيه زعيماً معتزلياً كما أبقاه أديباً عالياً ؟ لا جرم لقد أمضى الجاحظ عمره الطويل يسخر آراءه للدفاع عن دينه ، ويسخر المعارف والعلوم لنشر رأيه ، ويسخر أدبه الرفيع لجميع ذلك ، فهو قبل كل شيء رجل دين يحترمه ويخلص له ، ثم هو رجل فلسفة وعلم ، وللأدب منه مكان الملكة الفنية ، ومكان الآلة التي بها يدافع عن عقيدته ويبث أفكاره ، ويشحذ الأذهان والمشاعر ، ولئن لم يخلد من آثاره غير أدبه ، فذلك لأن الأدب الرفيع ملك للناس في كل جيل . وما زهقت آثاره الدينية الاعتزالية من ضعف عن مغالبة الفناء ، وانما محقها ومحق الاعتزال تعصب المحدثين وأشياعهم الكثر حين أديل لهم ، فأوقعوا بالمعتزلة جزاء وفاقاً على ما قدم هؤلاء من صنوف الأذى وضروب المحن ، فدثرت آثار الجاحظ كما دثرت آثار المعتزلة جميعاً ، ولم يبق منها الا القليل مما انبث في عرض كتبه الأدبية ورسائله ، مما يجعل فهمه زعيماً معتزلياً عسراً كل العسر ، ولكن مهما يكن من شيء فالجاحظ ركن شديد من أركان الاعتزال سليل أولئك الفحول العظماء الذين كانت بيدهم مقاليد الفكر ، وأعنة البحث ، والذين آمن بهم الجاحظ ايماناً حمله على القول في حقهم بأنه «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون» وكان يقول في معرض الحديث عن ابراهيم النظام وأصحابه : «انه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فان لم أقل ولولا أصحاب ابراهيم وابراهيم لهلكت العوام من المعتزلة فاني أقول انه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ، ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة» والحق ان هذه النحلة لم تنته الى ابراهيم النظام حتى كان لها فيه أعظم زعيم أحسن رعايتها وشد أزرها ، بعقل رائع ، وذهن لامع ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واطلاع واسع ، ونبوغ لا يحد ، مع استقلال في التفكير ، وقدرة أدبية كان فيها مضرب المثل ، فالنظام هو الأستاذ المعتزلي الأكبر للجاحظ ، أخذ عنه أصول الاعتزال مع كثير من العلم والفلسفة والأدب ، وتعهده ذاك بالتربية الفكرية والرياضة العقلية ، فالجاحظ تلميذ النظام واعتزاله اعتزاله ولكنه لم يكن مع أستاذه إمعة يقول بجميع ما يقول به . بل يوافقه تارة ويخالفه أخرى ، شأن المفكر المستقل . وأمره مع أستاذه كأمره مع من تقدمه من شيوخ الاعتزال . فالجاحظ وافق المعتزلة فيما ذهبوا اليه من القول بالأصول الخمسة . ووافق النظام في كثير مما ذهب اليه من الفروع . ولكنه انفرد بمقالة سنعرضها قريباً .

وليس في أيدينا من كتبه ما يظهر لنا آراءه جميعها مع أدلتها الا نتف مفرقة تنم عن رأيه في الأصول الخمسة أو في بعض ما يتبعها من آراء . فهو يقول مثلاً في مبدأ العدل الذي يحظر فيه المعتزلة نسبة الشر الى الله بعد كلام : « وكل ميسر لما خلق له لتتم النعمة ولتكمل المعرفة وانما تأبى التيسير للعاصي » . ويقول في هذا الرأي في موضع آخر : « فان أنت أبغضت من جهة الطبيعة واستثقلت من جهة الفطرة ضربين من الحيوان : ضرباً يقتلك بسمه وضرباً يقتلك بشدة أسره لم تلم ، الا أن عليك ان تعلم ان خالقهما لم يخلقهما لأذاك ، وانما خلقهما لتصبر على أذاهما ، ولأن تنال بالصبر الدرجة التي يستحيل أن تنالها الا بالصبر ، فالصبر لا يكون الا على حال مكروه » . الى ان يقول : فافهم فهمك الله مواقع النفع كما يعرفها أهل الحكمة وأصحاب الاحساس الصحيحة » . ويقول فيما يتعلق بالتوحيد ونفي الصفات : « وقد علم الدهري اننا نعتقد ان لنا رباً يخترع الأجسام اختراعاً وانه حي لا بحياة وعالم لا بعلم وانه شيء لا بنفسم وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق » . وله في كتاب حجج النبوة بحث مطول عن خلق القرآن وما في ذلك من أدلة وردود . هذه اشارة خفيفة الى رأيه في الاعتزال ، ولنشرع في آرائه الخاصة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ليس من شك ان للجاحظ آراء كثيرة اختص بها وتزعم بها فرقةً يقال لها الجاحظية ، ولكن هل من الصحيح أن يكون له كل ما نسب اليه من آراء ؟ يرى الباحث ان ليس الأمر كذلك ، فالجاحظ المرح الحسن العشرة الذي لا يجيبه أحداً بما يكره ، كان الى ذلك مغرًى بالنقد كلفاً بالمحاجة . ولوعاً بكشف هنات الخصوم ، مما أدى المتشيعين وبعض أهل السنة الى الكيد له والتربص به . ذلك ان الجاحظ حين ألف كتابه فضيلة المعتزلة لم يقصد به الى اطراء المعتزلة والثناء عليهم فقط ، بل قصد أيضاً الى الرد على الرافضة وابراز فضائحهم مما جعله هدفاً لغارة الخصوم . فوكل الشيعة أمر الرد عليه الى احمد بن يحيى الراوندي الذي كان قبل ذلك معتزلياً ثم طرد لالحاده فتقبله الرافضة وصار من أنصارهم ، وهو الذي اتفق العلماء على الحاده وكذبه . هذا ابن الراوندي هو الذي رد على الجاحظ وكذب عليه ، وليس الغريب ان يرد وأن يكذب ، ولكن الغريب ان يكون ابن الراوندي عند أهل السنة كاذباً دائماً الا اذا كان بمعرض القول عن المعتزلة عامة والجاحظ خاصة فانه صادق يصح النقل والرواية عنه ، فالبغدادي والغزالي والشهرستاني وابن حزم كل أولئك كان مصدرهم في كثير مما أوردوه على المعتزلة كتاب « فضيحة المعتزلة » الذي رد به الراوندي على الجاحظ ، وابو الحسين الخياط صاحب كتاب « الانتصار » هو وحده الذي انتصر للمعتزلة وللجاحظ ، وبين افتراء ابن الراوندي عليهم ، وتحريفه لمذاهبهم . ومما يدل على تجرده في الانتصار اعترافه ببعض وتصحيحه مفهوم بعض وانكاره بعضاً . اذن فليس كل ما نسب الى الجاحظ صحيحاً يستحق البحث والنظر ، ولكن الذي يبدو أنه لاشك فيه ، هو ما قاله الأشعري ، وما اعترف به الخياط ، وما قاله المرتضى ، وما أشار اليه الجاحظ ، وما أجمع عليه مورخو الخل من قوله على ما جاء في الشهرستاني : « قال الجاحظ : ان المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من افعال العباد ، وليس للعباد كسب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سوى الارادة ويحصل أفعاله طباعاً » وقال المرتضى « ان الجاحظ أغرى بشيئين : كون المعارف ضرورية والكلام على الرافضة . ويقول الأشعري : « قال الجاحظ : ما بعد الارادة فهو للانسان بطبعه وليس باختيار له ، وليس يقع منه فعل باختيار سوى الاراده » . ولبيان هذا نقول : ان الجاحظ يريد ان الانسان لا يملك من نفسه كل شيء كما يقول بذلك المعتزلة ، وانما يملك الارادة وحدها ، فهو يستطيع أن يريد متى شاء ، ويستطيع ألا يريد متى شاء . ولكن لا يستطيع اذا أراد شيئاً ألا يريد ما يتبع ذلك الشيء ضرورة . فمن مقدور الانسان ومن إرادته أن يمد عينيه وينظر ، ولكن ليس من ارادته ما يكتسبه بالنظر من معرفة ، لأنه لو أراد بعد النظر ألا يكتسب شيئاً لما قدر عليه ، فنظره الى الشيء عمل إرادي و كسبي ، وما نتج عن نظره من معرفة فاضطراري طبعي ، وكذلك الحال في الأمور العقلية ؛ فتوجيه النظر عمل ارادي كسبي ، وتحصيل العلم الناتج عن توجيه النظر ضروري طباع ، اذن فمعارف الانسان عند الجاحظ بطبعه ، فكما ينمو عقله طبيعياً تنمو معارفه طبيعية ، وللجاحظ في الطبائع بحث يؤكد ايمانه بها يقول فيه : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما ، والمصيب الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال . ومن زعم ان التوحيد لا يصح الا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد . وكذلك اذا زعم ان الطبائع لا تصح اذا قرنها بالتوحيد ومن قال فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع ، وانما ييأس منك الملحد اذا لم يدعك التوفر على التوحيد الى بخس حقوق الطبائع ، لأن في رفع أعمالها رفع اعيانها ، واذا كانت الأعمال الدالة على ذلك قد دفعت الدليل فقد أبطلت المدلول عليه ، ولعمري ان في الجمع بينهما بعض الشدة ، وانا أعوذ بالله تعالى أن أكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل نقضت ركناً من أركان مقالتي ، ومن كان كذلك لم ينتفع به » ويتبع مقاله الجاحظ بأن المعارف ضرورية طبعية ، رأيُه في الكافرين ونجاتهم إن لم يكونوا في كفرهم معاندين . يقول الغزالي في كتابه المستصفى : « ذهب الجاحظ الى ان مخالف ملة الاسلام من اليهود والنصارى والدهرية ان كان معانداً على خلاف اعتقاده فهو آثم وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضاً معذور ، وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط لأن الله تعالى لا يكلف نفساً الا وسعها وقد عجزو عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى اذا استد عليهم طريق المعرفة » فهذا الرأي يرجع الى رأيه السابق : يكون المعارف ضرورية ، لأن الانسان اذا نظر فأسلم فاسلامه بعد النظر ضروري ، واذا نظر فكفر فكفره بعد النظر ضروري ، وآراء الانسان وعقائده نتيجة طبيعية للتفاعل بين عاملين تكوين عقله ، وما يعرض من آراء ولا يكلف الله نفساً الا وسعها . هذا وقد نسب الى الجاحظ كثير من العقائد لم يقلها في كتبه ولم ينقلها عنه أحد من تلاميذه من ذلك ما نقله عنه الشهرستاني بأنه يقول : « باستحالة عدم الجواهر وبأن الأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز أن يفنى » فقد رد هذا القول الخياط المعتزلي بقوله في الرد على ابن الراوندي « وهذا كذب على الجاحظ عظيم ، وذلك ان قول الرجل انما يعرف بحكاية أصحابه عنه أو بكتبه ، فهل وجد هذا القول في كتاب من كتبه ؟ الى أن يقول : فاذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ما قرفه به هذا المأجن الكذاب » . وأما قول الشهرستاني بأن الجاحظ يقول في أهل النار « انهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون الى طبيعة النار » وانه يقول « النار تجذب أهلها الى نفسها دون ان يدخل أحد فيها » فقد رد الخياط على الراوندي بقوله « وهذا كذب وزور ، وهذه كتب الجاحظ في أفعال الطبائع فانظر فيها ، فان وجدت فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حرفاً واحداً مما حكاه عنه هذا الماجن فهو صادق، والا فاعلم انه كاذب بهات. كذب عليه في الحكاية عنه انه يحيل فناء الاجسام ثم أردفه بكذب آخر والله المستعان» ومع هذا التكذيب الشديد من الخياط الذي هو أعلم بمقالة المعتزلة، ذهب بعض علمائنا الباحثين المعاصرين الى تثبيت ما ذهب اليه الشهرستاني مع ان الناقل لها في الاصل هو ابن الراوندي المشهور بإلحاده وكذبه والمستأجر بمال اليهود والرافضة للرد على من خالفهم.

دين الجاحظ:

اذا ذكر الجاحظ بين المتزمتين اشمأزت لذكره نفوسهم، لأنه يظهر لهم مستهتراً لا يحترم ديناً ولا يراعي عرفاً، وهو من الأدب والى الأدب لا يرضى حتى يرضي ذوقه ويشبع نهمته في فنه، وإن جاوز بذلك تعاليم الدين، وقد يكون لهؤلاء بعض العذر، وقد لقفوا معلوماتهم عن الجاحظ تقليداً لأولئك الذين قرفوا الجاحظ وطعنوا به. ولكن الباحث يرى من التخاصم والتجاذب بين الجاحظ وخصومه من محدثين ورافضة وغيرهم ما يكفيه أن يقتنع ان ليس صحيحاً أكثر ما نسب اليه. ومن قرأ ما كتبه ابن قتيبة المحدث الأديب المعاصر للجاحظ ير من تحامله عليه شاهداً بيناً على ذلك، فقد قال عنه في كتابه تأويل مختلف الحديث «ثم نصير الى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعابر على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة» الى أن يقول «ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فاذا صار الى الرد عليهم تجوّز في الحجة كأنه انما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين» الى أن يقول: «وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل» فهنا نرى ابن قتيبة قرف معاصره وندد الجاحظ بأشياء أخطرها دعواه: أنه يعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحسب هذه التهمة من الرد ان يرجع الانسان الى قول الجاحظ نفسه في رده على النصارى ، فيرى من قسوة الأحكام وأسر الحجة ما يقنعه بتحامل ابن قتيبة عليه . ولو ان ابن قتيبة عاود قراءة كتاب الجاحظ في رده على النصارى في تجرد ، لألفى الجاحظ يرد في نفس الكتاب على ما يمكن أن يتذرع به أمثاله من التهم الباطلة اذ يقول « ولولا ان الله قد حكى عن اليهود انهم قالوا : عزير ابن الله ، ويد الله مغلولة ، وان الله فقير ونحن أغنياء . وحكى عن النصارى انهم قالوا : المسيح ابن الله . وقال : لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة — لكنت لأن أخر من السماء أحب الي من أن ألفظ بحرف مما يقولون ، ولكني لا أصل الى اظهار جميع مخازيهم ، وما يسرون من فضائحهم الا بالاخبار عنهم » الى آخر ما قال : وهذا رد صريح عن ابن قتيبة قبل الاعتراض . وأما ما قاله ابن قتيبة عنه : بأنه أكذب الأمة وأوضعهم لحديث ، فهذه شهادة معاصر خصم لا يعتد بها ، وما أدري كيف تبعه فيها كثير من المحدثين مع انهم لا يعتدون بجرح المعاصر المتحامل ونظير ذلك تزييفهم لجرح الذهبي اذا طعن معاصراً له . والذهبي هذا من الطاعنين أيضاً بالجاحظ تقليداً لأسلافه قائلاً عنه : بأنه باقعة قليل دين . قال المقبلي في الرد عليه : علم من المختلفين في العقائد أتباع الهوى وقبول المثالب من دون تثبت ثم قال عن الجاحظ : هو أجل من ذلك وانما تحامل عليه مخالفوه في العقائد فلا يصدقون عليه ، وأصحابه المعتزلة أخبر به . فهو عند المعتزلة من جلة العلماء ، وعند الجميع مقدم الأذكياء الحكماء .

عبد الغني الدقر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net